مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة العلوم الإنسانية المجلد 14 (العدد 1) 1412هـ-1992م.

المكتبات عبر التاريخ

الدكتور نجيب غـزاوي
أستاذ مساعد في كليـــة
الآداب والعلوم الإنسـانية
جامـعة تشريـــــــن

يقسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام: التعريف والتاريخ والتصنيف. نبدأ بتعريف المكتبة وبيان أهدافها ووظائفها ثم ننتقل إلى تقديم لمحة تاريخية عن نشوء المكتبات مع بداية عصر الكتابة في بلاد ما بين النهرين، نتحدث عن شكلها وتنظيمها وأهدافها لدى كل من السومريين والبابليين والأشوريين والأوغاريتيين، وفي إيبلا ووادي النيل ولدى الإغريق والرومان. ونعود للحديث عن المكتبات في ظل الحضارة العربية الاسلامية.

نخصص الجزء الثالث من بحثنا للتصنيف والتنظيم ونقدم لهذا الموضوع بدراسة تصنيف المعرفة لدى الفلاسفة والمفكرين في الشرق والغرب لنرى مدى تأثير هذا التصنيف في تصنيف المكتبات في الماضي والحاضر.

نتحدث أخيرا عن أساليب التصنيف الحديثة التي أدخلها تطور المعلوماتية ونشوء مصارف المعلومات وشبكاتها في نهاية القرن الحالي.

آ- في التعريف والأهداف :

يعرف "قاموس الآداب" والموسوعة الفرنسية المكتبة بأنها المكان الذي تحفظ فيه الكتب، أو مجموعة الكتب الموجودة في هذا المكان، أو المؤسسة التي تقوم على حفظها.

أما قاموس أوكسفورد، فيرى أن المكتبة هي بناية أو غرفة أو مجموعة من الغرف تحتوي على مجموعة من الكتب والمواد المكتبية الأخرى توضع في تصرف عامة الناس، أو مجموعة خاصة منهم، أو مجموعة تابعة لهيئة أو جمعية أو ما شابهها.

يمكننا القول بعد ذلك، إن المكتبة هي تلك المؤسسة التي وجدت لتضم مجموعة معينة من الكتب وغيرها من المواد المكتبية وتحفظها بحيث تنظم وترتب وفق طرق منطقية وتحت إشراف فرد أو مجموعة أفراد متدربين على تقديم الخدمات المكتبية المختلفة للقراء.

ونوضح أن وظيفة المكتبة قد تجاوزت "وضع مايطبع من الكتب والمجلات والكراسات والخرائط والتقارير والوثائق التاريخية في متناول الطلاب والباحثين والجمهور بصورة عامة، لتشمل أمورا أساسية نجملها فيما يلي:

1- اختيار مواد المعرفة وجمعها وتنظيم سجل لها. والمكتبة تسعى بذلك إلى جمع التراث الإنساني وحفظه ونقله سليما إلى الأجيال القادمة.

2- إعداد هذه المواد للاستعمال عن طريق تجليدها وفهرستها وتصنيفها ثم تنظيمها بأسلوب معين يجعل الوصول إليها سهلا وممكنا.

3- توفير الخدمات المكتبية للقراء عن طريق نشر المعلومات وإيصالها إلى القراء في الوقت المناسب.

4- دعم عملية التدريس والتعليم ومساندتها وتطويرها عن طريق تقديم المصادر إضافة إلى الكتب المقررة في المنهاج.

5- الترفيه باعتبارها مركزا يجذب الجمهور من أجل تزجية أوقات الفراغ بما يتفق مع رغبات هذا الجمهور ويعود عليه بالنفع، من خلال المطالعة أو مشاهدة الأفلام.

6- المساهمة في حل مشكلة الأمية، أو إنجاز نشاطات مختلفة بالاشتراك مع الهيئات الاجتماعية في البيئة المحلية.

7- مساندة الهيئات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، من خلال نشر الوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ورفع المستوى الفني والمهني للقراء.

ب- المكتبات عبر التاريخ:

يبدو أن تأسيس المكتبات قد واكب ظهور الكتابة. ويجمع العلماء أن أولى المكتبات قد وجدت في بلاد ما بين النهرين في الألف الثالث قبل الميلاد. فمعظم الأعمال الأدبية السومرية والاكادية المعروفة أتتنا من المكتبات، أي مجموعات الرقم التي جمعت، قصدا، في مكان واحد. وقد سمي هذا المكان "إدوبا" باللغة السومرية، أي "بيت الرقم". وتشير الكلمة إلى شيء يشبه الجامعة الحديثة. وذلك أن الكتاب اليافعين كانوا يتبعون فيها تعليما متطورا. وكان هدف التأهيل فيها، الحصول على موظفين قادرين على القيام بالأعمال الكتابية المتعلقة بالمملكة وإدارة أرزاق الحاكم، أو المعبد وأن يعملوا كتاب عدل لتسجيل المعاملات بين الأفراد، لذلك فإن تأهيلهم كان يأخذ طابعا علميا (تمرينات حسابية، خط، نماذج رسائل وعقود) وكان يقوم بشكل أساسي على نسخ النصوص الأدبية.

لقد اكتشف العديد من هذه المكتبات في مدن مثل أور ونينيف ونيبور واوروك. كما اكتشفت فيها لوائح بأسماء المؤلفين الذين يمكن أن يكونوا آلهة مثل (إيا) Ea، أو أبطالا أسطوريين مثل (إدابا).

1- مكتبات وادي الرافدين:

مكتبة لكش: وهي من أقدم مكتبات وادي الرافدين (3200-2750) ق.م. وقد اكتشفت فيها مئات الرقم الطينية. وكانت هذه الرقم محفوظة في دار السجلات بالمدينة ومنظمة ضمن صفوف.

مكتبة نيبور: وتسمى مكتبة "نفر" أيضا. وهي تعود إلى عام 2270-2200 ق.م. وتشتمل الرقم التي اكتشفت فيها على موضوعات مختلفة كالحساب والأدب والسحر والتنجيم والقانون والتجارة والجغرافيا... أما تنظيمها فقد اتبعت فيه عدة أساليب: إذ رتبت بعض الرقم وفق الحجوم والبعض الآخر وفق أرقام متسلسلة أو تبعا للموضوعات.

مكتبة نينوى: يعتقد أن مكتبة نينوى هي أعظم مكتبة عرفها العالم القديم. يعود الفضل في شهرة هذه المكتبة إلى الملك آشور بانيبال، الذي كان يتمتع بثقافة عالية ومعارف واسعة. وقد جمع فيها آداب آشور وبابل ونظمها، وأمر أن توضع فيها نسخة مبوبة من النصوص المستقاة عن محفوظات المدن والمعابد كافة، وعين عددا من النساخ لإتمام هذا العمل. أما من حيث التنظيم فقد رتبت الرقم وفقا لموضوعاتها وأعدت لها فهارس تسهل الرجوع إليها. أما الموضوعات، فقد اشتملت على العلوم والأدب والفنون والشعر والسحر والطقوس الدينية واللغة والخط والطب والأساطير والحكايات. وفيها اكتشفت الألواح الأثنتي عشرة التي احتوت على ملحمة غلغامش ودائرة معارف لقواعد اللغة الآشورية-البابلية.

مكتبة ماري: اكتشفت في تل الحريري. وقد وجدت فيها مجموعة ضخمة من ألواح الطين يعود تاريخها إلى عام 2000 ق.م ويبلغ مجموع رقمها 20,000 رقم، كتبت بالخط المسماري الأكادي_البابلي.

2- مكتبات أوغاريت :

إن كل ماتعرفه عن أوغاريت جاء من المكتبات المكتشفة فيها. فقد اكتشفت في القصر الملكي خمسة مستودعات محفوظات. واحتوى القصر الجنوبي على مستودع. أما في الحي السكني فقد وجدت مكتبة ومستودعات للمحفوظات فيه. وكذلك الأمر في حي المعابد والخندق الجنوبي. واكتشفت مكتبات في الخندق الواقع جنوبي الهيكل. وتجدر الإشارة هنا إلى عالم يدعى "رباتو" وجدت في بيته مكتبة مؤلفة من عدد كبير من الرقم، كما تشير إلى شخص آخر، لم يعرف اسمه، تظهر المكتبة التي اكتشفت في بيته أنه كان عالما وقواعديا ضليعا.

لقد احتوت مكتبات أوغاريت، إضافة إلى النصوص الأدبية، العديد من الوثائق التي ترتبط بالإدارة أو النشاط الاقتصادي للمدينة ويشبه بعض هذه الوثائق المفكرات أو الاستمارات المشابهة لتلك التي يحتفظ بها العلماء في أيامنا هذه. وقد وجدت رقم تشبه الموسوعات اشتملت على أسماء الأسماك والطيور والمنسوجات والأقمشة. كما عثر على نصوص الطب والسحر والتنجيم في معظم مكتبات هذه الحاضرة.

3- مكتبات إيبلا :

في تشرين الأول عام 1975، عثر على مكتبة إيبلا التي احتوت على 15000 رقم مسماري. وقد رتبت هذه الرقم على رفوف خشبية بصورة دقيقة وصنفت وفق مواضيعها. وتبين أن هذه المكتبة قد هدمت واحرقت بفعل نارام سين، الملك الأكادي، عام 2250 ق.م. أما محتوياتها فقد اشتملت على عدد كبير من النصوص المعجمية، وعدد محدود من النصوص الأدبية الاسطورية، إلى جانب نصوص إدارية وقضائية. كما وجدت فيها نصوص تتعلق بتسجيل الحسابات المتعلقة بالأمور المالية والاقتصادية. وهناك قسم محدود نسبيا من النصوص الشرعية. أما النصوص السياسية فكانت نادرة للغاية وأما لغة هذه النصوص فكانت محلية أصيلة تتميز عن كل اللغات القديمة وإن كانت قريبة من اللغة الأكادية.

4- مكتبات وادي النيل :

يرى ربحي عليات(1) أن المكتبات في وادي النيل كانت أسبق بالظهور من غيرها من المكتبات. فهو يقول *"عرف المصريون الكتابة منذ حوالي خمسة آلاف سنة وسجلوا فيها وصاياهم وتعاليمهم الدينية. وقد وجدت فيها مكتبات كثيرة"*، ساعد على انتشارها حب المصريين للآداب والفنون إضافة إلى توفر ورق البردي، وبشكل خاص في عصر كل من الملك خوفو وابنه خفرع. ازدهرت المكتبات، أيضا، في عهد رمسيس الثاني. وقد أنشأ هذا الملك مكتبة في المعبد الذي يحمل اسمه، في القسم الغربي من طيبة وقد تكونت مكتبته من ورق البردي وسعف النخيل والجلود والحجر. أما مكتبة خوفو وخفرع فقد اقتصرت على البردي فقط. وعموما، كان لكل ملك مكتبات ملحقة بقصره تحتوي على مراسلاته والمعاهدات والقوانين السائدة في عصره. أما المعابد فقد اشتملت على مكتباتها الخاصة التي احتوت على موضوعات جمعت لأغراض دينية وتعليمية. ونذكر بهذا الصدد مكتبة معبد هيليوبوليس التي احتوت على كتب للمعالجة.

مكتبة الاسكندرية

تعتبر مكتبة الاسكندرية أهم حدث في تاريخ المكتبات القديمة. فقد أنشأها بطليموس الأول 283 ق.م ورعاها ابنه بطليموس الثاني ومدها بالمال حتى ضاقت بما فيها من الكتب، عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، إذ ضمت عدة مئات الآلاف من لفائف البردي، مما استوجب افتتاح مكتبة ثانية عرفت بالمكتبة (الابنة) أودع فيها 42800 مجلداً. وقد قام بطليموس الثالث بإغنائها من خلال:

1- إلزام جميع القادمين إلى الاسكندرية بتسليم ما لديهم من كتب إلى مكتبتها إذا لم تكن هذه الكتب موجودة فيها.

2- مصادرة جميع ما تحمله السفن الراسية في الاسكندرية من كتب لتودع فيها.

3- استعارة أعمال أخيلوس وسوفوكليس واوريبيدوس من أجل نسخها.أشرف على هذه المكتبة كاليماخوس الذي صنف مجموعاتها البالغة نصف مليون لفافة بردي، ووضع لها فهارس بلغ عددها 120 ملفا رتب بعضها ترتيبا زمنيا وبعضها الآخر ترتيبا أبجديا، تبعا للموضوعات أو تبعا للمؤلفين، وقدم لكل مؤلف بترجمة مختصرة ثم اتبعها بثبت لمؤلفاته. وبذلك تعتبر هذه المكتبة أول معهد ببليوغرافي في العالم، وقد اشتملت على تراث الأغريق والبحر المتوسط والشرق والهند.

5- المكتبات لدى الإغريق والرومان:

لقد عرف الإغريق المكتبات الخاصة منذ القرن الرابع قبل الميلاد، ويرجح أن أرسطو كان أول من امتلك مكتبة خاصة شجعه على ذلك الاسكندر الذي أمده بالمال لهذا الغرض. أما المكتبات العامة فقد عرفت هناك منذ 330 ق.م، وكانت في معظمها هبات قدمها مواطنون أثرياء. ولم يكن يسمح بالإعارة الخارجية فيها: *إذ وجد نقش في أثينا يقول: لايسمح بخروج الكتب، وتفتح المكتبة من الساعة الأولى إلى الساعة السادسة.*

أما القادة الرومان فكانوا يجلبون مكتبات الإغريق معهم، أثناء عودتهم إلى روما، مما أثر تأثيرا قويا في الثقافة الرومانية، وأدى إلى انتشار حب الكتب لدى الأرستقراطية الرومانية في القرن الأول الروماني. ومن أهم مكتبات العصر الروماني مكتبة المتحف التي بناها بتوليمي بمساعدة ديمتريوس فالير حوالي عام 297 ق.م. وكان شيشرون *يعتز بمجموعته اعتزازا كبيرا ويعتبرها درة بيته*". أما صديقه أتيكوس، أول الناشرين لدى الرومان، فقد نافس الاسكندرية في تجارة الكتب، وقد استخدم (فارو) عالم فقه اللغة في وضع كتاب حمل عنوانا ذا دلالة "عن المكتبات". كما أسس قيصر، بمساعدة (فارو) هذا مكتبة الدولة، وأسس الامبرطور اوغسطس (28) ق.م. مكتبتين خصصت الأولى للكتب الإغريقية والثانية للكتب اللاتينية. وقد تصاعد اهتمام الرومان بالمكتبات لدرجة نجد معها ثماني وأربعين مكتبة في روما، مع بداية القرن الرابع الميلادي، أهمها مكتبة ألبيا. إلى جانب الكتب، كما أشرف عليها علماء بارزون. اهتم الرومان البيزنطيون أيضا بالمكتبات. فقد أسس القيصر قسطنطين مكتبة عام 353 م، وقامت إلى جانب أكاديميته العلمية، بنشر الثقافة في مدينة القسطنطينية والعالم البيزنطي. كما أنشأ الامبرطور جوليان مكتبة كبيرة في القسطنطينية زودها بمجموعات من الكتب الإغريقية والرومانية.

6- المكتبات العربية الإسلامية:

نشأت المكتبات عند العرب المسلمين مع المساجد التي كانت أماكن للتزود بالعلم والمعرفة وممارسة الحياة السياسية والاجتماعية، إضافة إلى كونها دورا للعبادة.

ويشار إلى أن المكتبات الاسلامية قد ظهرت في مطلع العصر الأموي حيث أنشأ الخليفة معاوية ابن أبي سفيان مكتبة "بيت الحكمة" في قصر الخضراء بدمشق. وقد تطورت هذه المكتبة في عهد خلفائه، عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك. كما أقام خالد بن يزيد المكتبة العلمية الأولى وألحقها بمركز النقل والتعريب الذي كان يشرف عليه ويقيم فيه التجارب العلمية. وقد احتوت هذه المكتبة على كتب في الفلك وأخرى نقلت عن اليونانية.

أما العصر العباسي فقد شهد ازدهارا للمكتبات بأنواعها المختلفة. إذ أنشأ الخلفاء العباسيون المكتبات الخاصة وألحقوها بقصورهم، كما كانت هناك مكتبات ملحقات بالمساجد والمدارس أو المعاهد العليا، وكان يؤمها الطلاب والعلماء والشعراء والقضاة... كما عرف هذا العصر المكتبات المتخصصة الملحقة بالمستشفيات.

من أشهر مكتبات هذا العصر مكتبة الخليفة المنصور، وقد عمل فيها عدد من الوراقين وزودت بمئات من المخطوطات في الشعر والنقد والدين والفلسفة والتاريخ. كما أنشأ هارون الرشيد مكتبة "بيت الحكمة" التي طورها المأمون. وقد اجتمع فيها العلماء والباحثون والطلاب، وجلبت إليها الكتب من البلدان المختلفة، وعمل فيها عدد من المترجمين وعلى رأسهم حنين بن اسحق الذي أشرف على نقل كتب الطب والفلك من اليونانية واحتوت هذه المكتبة على قسم للتأليف وآخر للتجليد والاستنساخ والتجليد، وكذلك على مرصد فلكي. وقد سار الوزراء على منوال الخلفاء. فكان للفتح بن خاقان مكتبته، وللوزير المهلبي مكتبته التي ضمت 117000 كتاب. واحتوت مكتبة ابن العميد على حمولة مئة جمل من الكتب العلمية والأدبية. واشتملت مكتبة الوزير الصاحب بن عباد على حوالي 206000 كتاب.

اهتم الأمويون الأندلسيون بالمكتبات. وكان من أشهر مكتباتهم مكتبة قرطبة التي أسسها عبد الرحمن الثالث في مدينة الزهراء وقد احتوت على 400,000 كتاب، ولعبت دورا هاما في نشر الفلسفة اليونانية والرياضيات والعلوم الطبيعية والطب وغيرها من العلوم، ونذكر من المكتبات الخاصة، مكتبة الطبيب القيرواني، ابن الجزار، الذي ترك عند وفاته 250 طنا من لفائف جلد الغزال كتبها بيديه. وتميزت مكتبة القاضي ابن المطرف بن فطيس بحسن ترتيبها، وكان فيها عدد من الوراقين يعملون في النسخ، كما أدارها وأشرف عليها وفهرسها أبو عبد الله بن معالي الخضرمي.

فيما يخص العلماء الفاطميين نذكر مكتبة "دار الحكمة" التي أنشأها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، في القاهرة. وقد احتوت على عدة أقسام: قسم الفقهاء، وآخر لقراء القرآن، وثالث للمنجمين، ورابع للغويين، وخامس للأطباء، واشتملت على 1,600,000 كتاب.

7- المكتبات الغربية من العصر الوسيط إلى الوقت الراهن:

لقد لعبت المكتبات الدينية، في العصر الوسيط، دورا كبيرا في المحافظة على الثقافة الغربية، بما فيها الأدب الوثني. كانت مكتبات الأديرة صغيرة عموما، إذ لم تكن تحتوي إلا على 200-600 كتاب. ونذكر من هذه المكتبات مكتبة دير كونستانز ومكتبة القديس جالن. أما المحتويات، فقد اشتملت على نسخ الكتاب المقدس، وبعض المحفوظات الدينية البسيطة.

مع القرن الثالث عشر بدأ انتشار الجامعات التي احتوت على ورشات نسخ ومكتبات. ونخص بالذكر هنا جامعتي اوكسفورد وباريس. وقد خصصت في جامعة السوربون صالة طويلة وضعت فيها مقاعد يمكن أن توضع عليها كتب تربط إلى الرفوف بواسطة سلاسل. كما اندفع الملوك في تأسيس المكتبات ونذكر منهم لويس التاسع وشارل العاشر.

أما في القرن الرابع عشر، وأثناء القرن الخامس عشر، فقد سعى المثقفون الايطاليون إلى جمع النصوص اليونانية واللاتينية ونسخها، ونشر الثقافة الإنسانية. وقد لعب بيترارك دورا اساسيا في

هذا المجال من خلال إقامة مكتبة عامة كبيرة. ولابد من الإشارة إلى مكتبة الفاتيكان التي أنشئت في عصر النهضة، وتطورت، وتوسعت في عهد البابوات المختلفة. ونشير أيضا إلى مكتبة الاسكوريال التي اشتملت على نظام رفوف ثوري اعتبر نموذجا اتبعه المعياريون في العهود اللاحقة.

ظهرت، في القرنين السابع عشر والثامن عشر المكتبات الخاصة، وفتحت للجمهور بناء على نصيحة مدير مكتبة مازاران(2)، غابرييل نودي: *"إلى أي شخص يحتاج إليها"*. وقد أدى التطور الذي شهدته هذه المرحلة في مجال نقد النصوص، ودراسة المصادر، وتنظيم البحث العلمي، إلى تطور واسع في المكتبات، وإغناء لها لتخدم بالفعل حاجات العلماء. وقد شهد هذان القرنان نشوء المكتبات الوطنية في كل من باريس ولندن.

يعتبر القرن التاسع عشر عصر انتشار المكتبات العامة، بخاصة في البلدان الانكلوسكسونية. وظهرت مكتبات الدخول الحر في الولايات المتحدة وبريطانيا حوالي عام 1850، ونذكر في هذا المجال مكتبة بوسطن من الولايات المتحدة الأمريكية ومكتبة مانشستر في بريطانيا. وازداد عدد المكتبات العامة في البلدان الناطقة باللغة الانكليزية حتى بلغت 2500 مكتبة، بين عامي 1902-1919.

في منتصف القرن العشرين، أخذت المكتبات تعاني بعض المشكلات نذكر منها هذا العدد الكبير من القراء الذي بدأ يرتادها، من علماء وطلاب وباحثين ينشدون الثقافة والمعرفة والمعلومات. وقد أدركت مؤسستان دوليتان: اليونسكو والاتحاد الدولي للتوثيق هذه المشكلة. فسعت مع الجهات الوطنية المعنية لإجراء اصلاحات هامة في مجال التنظيم المكتبي. وقد تطلب الأمر تطوير تأهيل المكتبيين وتنويعه. كما تم تنظيم شبكات فعالة من المكتبات وإقامة نظام إعارة عبر المكتبات يخدم الريف والمدينة. وترصد الدول مبالغ معينة في ميزانياتها السنوية للمكتبات، فيقوم بلد مثل الدانمارك بإنفاق مبلغ 18,50 فرنكا فرنسيا عن كل نسمة في العالم لمصلحة المكتبات (تنفق الولايات المتحدة 12,60 فرنكا فرنسيا للغرض نفسه). أما في البلدان الاشتراكية، فتقوم المكتبات الجماهيرية بزيادة عدد النسخ المطبوعة والمخصصة للحفظ أو للإعارة. ويبلغ عدد هذه المكتبات في الاتحاد السوفيتي 400,000، تحتوي على مليارى كتاب.

إضافة إلى المشكلة الأولى، تعاني المكتبات اليوم من تخزين الكتب. وقد قدمت حلول لهذه المشكلة من خلال استخدام الحاسبات وعلم المعلوماتية. فيقوم الحاسب اليوم بإدارة المكتبات وتخزين المعلومات وتنظيمها ويضعها بتصرف الزبائن الدوليين من خلال شبكات معلوماتية عبر الأقمار الصناعية. تسمح هذه الشبكات للباحث بالوصول السريع إلى المعلومات الشاملة والخاضعة لمعايير انتقاء دقيقة جدا.

ونذكر من أهم المكتبات في القرن العشرين مكتبة لينين في الاتحاد السوفيتي التي تعتبر مكتبة الدولة الرسمية وترتبط بها جميع المكتبات العامة في هذا البلد، كما تحتوي على سبعة وعشرين مليون مجلد. وهناك في الاتحاد السوفيتي مكتبات عدة هامة منها مكتبة لينينغراد وتتضمن واحدا وعشرين مليونا من الكتب في العلوم المختلفة، ومكتبة أكاديمية العلوم في نوفوسيبيريك وتحتوي على عشرة مليون كتاب.

أما في الولايات المتحدة فهناك مكتبة الكونغرس التي تأسست عام 1800م وتحتوي على 20 مليونا من الكتب، كما تضم الأفلام والأسطوانات والشرائح والتقارير العلمية والمحفوظات

والرسومات. وهناك مكتبة نيويورك المخصصة للبحث العلمي وتحتوي على تسعة ملايين كتاب وكذلك مكتبة جامعة هارفرد وتشتمل على عشرة ملايين مجلد.

نجد في المملكة المتحدة مكتبة المتحف البريطاني التي تحتوي على عدد من المجموعات النادرة من الكتب والمخطوطات من مختلف أنحاء العالم نذكر منها 2400 ورقة بردي و 17000 مخطوطة شرقية إضافة إلى مجموعات من كتب مكتبة الاسكندرية ومقطوعات موسيقية وأسطوانات وأشرطة تسجيل ومصورات جغرافية ونقود قديمة وميداليات وتحف.

هناك في فرنسا المكتبة الوطنية التي أسسها الملك شارل الخامس عام 1386، وقد اهتمت منذ تأسيسها بالتراث الفرنسي والمخطوطات وتحتوي اليوم على 20 مليون مادة.

ونذكر من الوطن العربي دار الكتب الوثائق القومية في القاهرة التي أنشأها الخديوي إسماعيل عام 1859، وتشتمل على تسعة عشر ألف مجلد من المخطوطات، كما نجد فيها أربعة معارض:

- معرض الخزائن التيمورية.
- معرض الأوراق البردية.
- المعرض الإيراني.

المعرض العام الذي يشتمل على أهم المخطوطات العربية وتطور الكتابة العربية.

ونشير أخيرا إلى مكتبة الأسد الوطنية بدمشق التي تعتبر أحدث مكتبة وطنية في الوطن العربي وتشتمل على أقسام للتصوير الوثائقي وللمواد السمعية وللفنون التشكيلية وخدمة المعلومات والمكفوفين....

جـ- في التصنيف والتنظيم

- في تصنيف المعرفة

اهتم الإنسان منذ القدم بتصنيف المعرفة وبذل الفلاسفة والمفكرون جهودا كبيرة لوضع نظم لهذا التصنيف، دون أن يكون لديهم أدنى تفكير في تطبيق هذه النظم على المكتبات، رغم أن هذه التصنيفات أصبحت فيما بعد أساس تنظيم المكتبات وفهرستها.

لقد حاول أفلاطون في كتابه "الجمهورية" تصنيف المعرفة إلى صنفين:

1- علم المحسوس، أي التطبيقات، ويفسر فيه العالم تفسيرا طبيعيا.

2- علم المعقول، أي الرياضيات والإلهيات.

أما أرسطو فقد صنفها إلى:

1- العلوم النظرية، مثل الهندسة والفلك والحساب.

2- العلوم العلمية، مثل علم الأخلاق والاقتصاد والسياسة.

3- العلوم الانتاجية مثل الشعر والبلاغة والجدل.

أما توما الاكويني فقد قسمها إلى:

1- المنطق.

2- العلوم النظرية.

3- العلوم العلمية.

ولعل أشهر الفلاسفة الذين أثرت نظرياتهم في التصنيف البيليوغرافي كان فرانسيس باكون الذي اعتمد في تصنيفه على ثلاث قوى عقلية:

1- الذاكرة ومنها انبثق التاريخ.

2- الخيال ومنه انبثق الشعر والفنون.

3- العقل ومنه انبثقت الفلسفة.

وقد قام العلماء العرب بالجهد نفسه، ويعود أول تصنيف عربي للعلوم إلى جابر بن حيان

(160هـ) الذي لم يصلنا من تصنيفه شيء. أما الكندي (801-873م) فقد قسم المعرفة إلى ثلاثة أقسام:

1- العلوم النظرية.
2- العلوم العلمية.
3- العلوم المنتجة.

وكان متأثرا في ذلك بآراء أرسطو.

أما الفارابي فقد قدم تصنيفه للمعرفة في كتابه "التنبيه إلى السعادة" و "إحصاء العلوم"، وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام، وقسم كل قسم إلى أجزاء وكل جزء إلى مراتب. أما الأقسام فهي:

1- علوم اللسان.
2- المنطق.
3- الرياضيات.
4- العلوم التطبيقية.
5- علم المجتمع.

وتأثر ابن سينا (900-1937) بالفارابي وأضاف بعض المعلومات، مثل الأحلام. أما إخوان الصفا فقد قسموا المعرفة إلى أقسام ثلاثة هي:

1- العلوم الرياضية.
2- العلوم الشرعية الوصفية.
3- العلوم الفلسفية الحقيقية.

وصنف محمدأحمد الخوارزمي العلوم إلى صنفين في كتابه "مفاتيح العلوم":

1- العلوم العربية وتضم العلوم اللغوية والدينية.

2- العلوم الدخيلة وتشمل العلوم التي نقلها العرب عن غيرهم.

وجاء في تلك الحقبة ابن النديم، صاحب الفهرست، الذي يعتبر نظام التصنيف لديه أول نظام يصلح للتطبيق على الكتب. وكتابه "الفهرست" مقسم إلى عشر مقالات وكل مقالة مقسمة إلى عدة فنون (وفقا للموضوع).

وقد وصف فخر الدين الرازي (864-925) ستين فرعا من العلوم وحلل أبو حامد الغزالي (1058-1111) المعرفة وفق معاييره الثلاثة:

1- مستوى الالتزام.
2- المصادر.
3- الوظيفة الاجتماعية.

وخصص ابن خلدون الباب السادس من مقدمته لتصنيف العلوم التي قسمها إلى:

1- علوم يهتدى إليها بثاقب الفكر، وهي العلوم الحكيمة والفلسفة.

2- علوم نقلية وصفية تعتمد على الوضع البشري.

جاء بعد ذلك طامش كبرى زاده صاحب كتاب "مفتاح السعادة ومصباح السيادة" ويعتبر هذا المؤلف أهم كتاب تصنيف عربي وأقربه إلى أنظمة التصنيف الحديثة. وقد جعل كبرى زاده التصنيف أحد العلوم الثلاث مائة التي عالجها في كتابه الذي أسماه "علم تقاسيم العلوم"، واقترح طريقتين لتكوين الأقسام معا هما:

1- التدرج من الأعم إلى الأخص.
2- التدرج من الأخص إلى الأعم.

وهاتان الطريقتان مشابهتان للطريقتين الحديثتين الاستدلالية والاستقرائية.

وأخيرا أخذ حاجي خليفة في كتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" عن طامش زاده. وكتابه "كشف الظنون" عبارة عن ببليوغرافيا معروفة في العلوم.

- في تصنيف المكتبات

يعتقد أن الآشوريين كانوا أول من قام بتصنيف المكتبات. فقد قسموا الألواح المكتوبة إلى قسمين الأول يعالج علوم الأرض أما الثاني فيعالج علوم الفلك والنجوم. ويعتبر كاليماخوس (310-240 ق.م) أول مكتبي معروف في التاريخ. فقد نظم مكتبة الاسكندرية بتقسيم المعرفة إلى أقسام خمسة: الشعر والتاريخ والفلسفة والأعمال الأدبية والخطابة. ثم قسم هذه الأقسام إلى أجزاء. كما عرف عنه أنه استخدم الترتيب الزمني وكذلك الترتيب الهجائي لأسماء المؤلفين.

وقد اعتمد العرب، كما ذكرنا ذلك، كتاب "الفهرست" لابن النديم الذي احتوى على لائحة مصنفة ومفصلة بأسماء المؤلفين قدامى ومعاصرين له مع ذكر كتبهم أو لمحة موجزة عنها وعن حياتهم. وكذلك كتاب "الفهرست الثاني" لابن خير الإشبيلي الذي عني بالمؤلفات أكثر من المؤلفين وأدرج أسماء الكتب وفق موضوعاتها.

أما في العصور الوسطى فقد ظهر نظام تصنيف ألفه "جبريل نوديه" الفرنسي. قسم هذا العالم المعرفة إلى اثني عشر قسما هي: الديانات ومصادر الكتب والفنون الحربية والمجمع المقدس والنظم الكنسية والجغرافية والسياسة والطب والتقاويم التاريخية والفقه والفلسفة والتاريخ والأدب. جاء بعد ذلك "برونيه" الذي وضع النظام المطبق في المكتبة الوطنية في باريس. وقد استخدم هذا النظام رموزا مزدوجة واعتمد الحروف الكبيرة والصغيرة.

حدث تطور كبير في التصنيف مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد صدرت الطبعات الأولى من الأنظمة التالية:

1- نظام التصنيف العشري - الذي وضعه ملفيل ديوي عام 1876 وهو الأكثر شيوعا في العالم.

2- نظام التصنيف التوسعي الذي وضعه شارل كتر عام 1891.

3- نظام مكتبة الكونغرس ووضع عام 1902.

4- نظام التصنيف الموضوعي ووضعه جيمس براون عام 1906.

5- نظام التصنيف التوضيحي ووضعه رانجا ناثان عام 1933.

6- نظام التصنيف البيبليوغرافي ووضعه هنري بليس عام 1935.

7- نظام التصنيف العشري العالمي ووضعه هنري لافونتين وبول اوتلث باللغة الفرنسية عام 1905 اعتمادا على تقسيم نظام ديوي للمعرفة.

في ختام حديثنا عن التصنيف والتنظيم لابد من التعرض للتقنيات المعلوماتية الحديثة التي وضعت بين أيدي الباحثين امكانيات البحث السريع والشامل، بكلفة أقل من البحث اليدوي، مما حقق قفزة نوعية في مجال فهرسة المعلومات وتنظيمها.

تشتمل هذه التقنيات على مصارف المعلومات التي تربط بينها الشبكات المعلوماتية. وقد بلغ عدد هذه المصارف في دول السوق المشتركة الأوربية حوالي ألفي مصرف، في منتصف الثمانينات، تربط بينها شبكة تعرف باسم (اورنيت). وهي موزعة وفق الاختصاصات المختلفة، فهناك مصارف معلوماتية متخصصة بالتكنولوجيا أو بالرياضيات أو بعلوم الحياة أو بالقانون أو بالفلسفة... كما أن هناك مصارف معلوماتية احصائية.

ومن أجل تقديم فكرة واضحة عن مصارف المعلومات هذه، نشير إلى أنها تحتوي عموما على

برامج تشمل مراجع علمية وتقنية نذكر منها، على سبيل المثال برنامج "الملخصات الكيميائية" وهو عبارة عن نشرة تحليلية للجمعية الكيميائية الأمريكية، تم إعدادها انطلاقا من أكثر من سبعة وتسعين ألف دورية دولية. كما نذكر برنامج "كومبوندك" الذي أعدته جمعية المهندسين الأمريكين وهو يغطي علوم الهندسة كافة. إضافة إلى البرامج التي تحتوي على معلومات عامة هناك برامج تحتوي على معلومات أكثر تخصصا وملاءمة تذكر، إضافة إلى محتويات الدوريات، تقارير الدراسات وأعمال المؤتمرات. كما أن هناك برامج تقدم للباحث معطيات تسمح له بإجراء حسابات وإعداد تصاميم.

أما في الوطن العربي فنعرف أن هناك شبكة الخليج العربي المعلوماتية التي تربط بين مختلف الجامعات والمراكز العلمية (إحدى عشرة مؤسسة علمية وجامعية) كما نفذ مركز البحوث في الجمهورية العربية السورية شبكة معلوماتية داخلية تربط الجامعات ومراكز البحوث في هذا القطر. وتقدم هذه الشبكة بعض الخدمات المحدودة للجهات المرتبطة بها. والشبكة المذكورة بحاجة إلى تطوير وربط بشبكتي الخليج والسوق المشتركة.

Nous commençons, dans cette étude, par la définition de la bibliothèque et de ses fonctions dans la vie culturelle des peuples. Puis, nous dressons une petite historie de l'évolution de la bibliothèque depuis les Sumériens jusqu'à nos jours en passant par les babyloniens, les assyriens, les égyptiens, les grecs, les romains, les arabes et les européens du moyen âge.

Nous consacrons une partie de cette étude à la classification et à l'organisation des bibliothèques. Nous parlons d'abord des théories sur la classification du savoir et de leur impact sur la classification dans la bibliothèque.

Nous finissons par donner une idée sommaire sur les développements actuels de la classification avec l'avènement de l'informatique et les réseaux et les banques de données.

الهوامش

1- المدخل إلى علم المكتبات. عمان، جمعية المكتبات الأردنية 1982.

2- رجل دين ودولة فرنسي لعب دورا كبيرا في الأحداث الهامة التي جرت في القرن السابع عشر، في أوربا.

المراجع العربية

1- أتيم، محمود أحمد، أسس التصنيف والتصنيف العلمي، بيروت، دار الجيل (1981).

2- الطباع، عبد الله أنيس، علم المكتبات، الإدارة والتنظيم، بيروت - دار الكتاب اللبناني.

3- الصوفي، د. عبد اللطيف، لمحات من تاريخ الكتابة والمكتبات، دمشق دار طلاس(1986).

4- عكروش، أنور (تحرير)، المدخل إلى علم المكتبات، عمان، جمعية المكتبات الأردنية (1982).

5- عبد الدايم، عبد الله،تاريخ التربية، دمشق، المطبعة الجديدة (1965).

6- عواد كوركيس، خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى عام 1000 للهجرة، بغداد مطبعة المعارف (1948).

7- قازنجي فؤاد، المكتبات والصناعات المكتبية في العراق، بغداد مطبعة الجمهورية (1972).

المراجع الأجنبية

- Des banques de données pour les étudiants, les enseignants, les chercheurs. Ministre de l'éducation national, Paris 1986.

- Dictionaire des littératures I, Larousse, Paris, 1985.

- Encyclopédie Française, Larousse, 1984.

- Saadé Gabriel, la vie intellectuelle et l'enseignement à Ougarit, Mémorial Graigie, Sheffiéld, 1988, Canada.